شرح كتاب المطوّل

في البلاغة

سعد الدين مسعود التفتازاني

د. محمود توفيق

المحاضرة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدِّين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله وصحبه، ومَن اهتدى بهديه إلى يوم الدِّين.

سأل سائلٌ: ما بالُك لا تقرأ كتابًا ككتاب (المثل السائر)، أو كتاب (الصناعتين) لأبي هلال، أو ككتاب (تحرير التحبير) لابن أبي الإصبع؟ وهي كتبٌ أنفع وأيسر مما أنت تقرأ، ما بالُكم تقرأون كتب الشروح والحواشي والتقارير، وأهل العلم يقولون: إنها بضاعةُ عصرٍ مُتَّسِم بالجمود! فلم تقرأونها؟

سؤالٌ وجيهٌ، أي له وجهٌ يُمكن أن يُصْغَى إليه، وهو في الحقيقة سؤالٌ غير غريبٍ، ذلك أن لكل دربٍ من الأسفار غايةً، ولكل دربٍ من الكتب أهلٌ.

فكتاب (المثل السائر) وكتاب (الصناعتين) وغير ذلك من هذه الكتب، هي من الكتب التي يأتنف صانعها –يعني يبدأ صانعها– قولًا من عند نفسه، لا قولًا على قولٍ، فالكتاب إما أن يكون قولًا من عند صاحبه، وإما أن يكون قولًا على قوله.

الدرب الأول من مثل كتاب (المثل السائر) وكتاب (الصناعتين) وغيرهما يكون لمن يريد أن يحصِّل عرفانًا بقضايا ومسائل الإبانة العَلِيَّة عمَّا هو مكنونٌ في الصدور؛ بمعنى أنه لم يكن لديه من المعرفة بعلم البلاغة وقضاياه ومسائله، ويريد أن يؤسِّس عرفانًا؛ فهي كتب تأسيسٍ لطالب علمٍ لم يتمكَّن بعد من قضايا ومسائل علم البلاغة، ومذاهب وآراء العلماء في هذه القضايا وتلك المسائل؛ أي أنها تُقرأ في مرحلةٍ من مراحل طلب العلم.

بينما كتب الشروح والحواشي والتقارير إنما هي تُقرأ في مرحلةٍ بعد ذلك، لا يقرأها مَنْ يريد أن يؤسِّس، وإنما يقرأها مَنْ كان قوَّامًا متمكِّنًا من قضايا ومسائل علم البلاغة.

ومن هنا لا يليق بأي إنسانٍ أن يُلْقِي بنفسه في كتاب شرحٍ أو حاشيةٍ وهو غير مكينٍ في قضايا ومسائل علم البلاغة.

كتاب (المثل السائر) وكتاب (الصناعتين) كتبٌ تُنَظِّر للقضايا والمسائل، وتُقرِّب هذه القضايا والمسائل، فهي أقرب إلى الجانب التنظيري.

أما كتب الشروح والحواشي فهي كتبٌ تطبيقيةٌ نقديةٌ، تمارس استثمار ما يُفْهَم وما يُقرأ من كتاب (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) و(المثل السائر) و(الصناعتين) وما شاكل ذلك، تمارِس استثمار هذه المعرفة التي حُصِّلت من هذه الكتب؛ لأن البلاغة علمٌ، وهذا العلم لا بد وأن يُستثمر في عملٍ.

فكُتب الشـروح التي نقرأها هي مرحلة اسـتثمار هذه المعرفة لنحيل هذا العلم إلى عملٍ؛ لأنه إذا لم يكن هناك عملٌ بهذا العلم فلا قيمة له!

فالذي ينظر إلى كتاب (المطوَّل) وغيره على أنه كتابٌ سـيؤسِّـس له معرفـةً؛ نقول لـه: لا، أنـت أخطـأتَ الطريق، هـذه الكتـب –الشـروح والحواشي– هي قولٌ على قولٍ، كتبٌ تَنْقُد بيانًا، وبيانًا عَلِيًّا!

بعض طلاب العلم يظنون أن العقـل البلاغي مجـال نظره بيـان الوحي قرآنٌ وسُنةٌ، وبيان الإبداع البشري، ويحصر الإبداع البشري في صنفين: في الشعر، وفي النثر الأدبي.

نقول له: قد ظلمتَ! هناك أيضًـا نوعٌ آخر يدخل في الإبداع البشـري؛ وهو النثر العلمي، اللغة التي يُكتب بها العلم؛ فهذا أيضًـا أسـلوبٌ بليغٌ، ولكل فنٍّ أو جنسٍ إبداعيٍّ بلاغته.

فبلاغة الأسـلوب العلمي ليسـت هي نفسـها بلاغة الأسـلوب الأدبي، فالكتاب الذي يكتبه السـعد –أو غيره– بلاغته ليسـت هي البلاغة التي يكتبها عبد الحميد الكاتب أو أحمد حسـن الزيات أو مصـطفى لطفي المنفلوطي.

أنـا لا أقرأ كتـاب (النظرات) بـالطريقـة التي أقرأ بهـا كتـاب (المطوَّل)، وكذلك لا أقرأ (المثل السائر) كما أقرأ (المطوَّل).

ليس المهم أن تقرأ، المهم أن تعرف ماذا تقرأ؟ ولماذا تقرأ؟ وكيف تقرأ؟ ثلاثة أشــياءٍ، فإذا لم أكن أعرف ماذا أقرأ؟ ولِمَ أقرأه؟ إن كانت طلِبَتي —أي بغيتي ومرادي منه– هي مرادي من (المثل الســـائر)؛ أقول له: قد أخطأتَ! أنت أشـبه برجلٍ ذهب إلى قصَّـاب —وهو الجزار– ليشـتري منه ثوبًا، نقول له: القصَّـاب لا يبيع أثوابًا، أخطأتَ الطريق! فعليك أن تعرف من أين تأتي بطلِبَتك، وأن تعرف لكل كتابٍ ولكل سِـــفْرٍ ما يُطْلَب منه، وكيف يُطْلَب منه.

وهـذا هو مناط الخطأ؛ وهو أننـا نتعـامـل مع الكتـب بطريقـةٍ واحـدةٍ، ونتعامل مع العلماء بطريقةٍ واحدةٍ، مع أننا لا نتعامل مع مطعوم أجســادنا بطريقةٍ واحدةٍ، لا نطهو طعامنا بطريقةٍ واحدةٍ، ولا نأكل أطعمتنا بطريقةٍ واحدةٍ، لكل طعامٍ طريقة طهيٍ، ولكل طعامٍ طريقة أكلٍ، ولكل طعامٍ أيضًا وقـتٌ يؤكـل فيـه، ووقـتٌ لا يؤكـل فيـه، فمـا بـالُـك تعرف الفروق في غـذاء جسدك، ولا تعرف الفروق بين أطعمة عقولنا؟!

فلا بـد أن نـدرِك تمـامًـا أن كتـب الحواشـــي كتبٌ نقـديـةٌ، كتـب قراءةٍ تعلِّمك كيف تقرأ.

دور علماء القرن السابع الهجري:

علماء القرن الســابع الهجري لما وجدوا أن الكتب الســابقة كانت كتبًا تؤسِّس، وأن المعرفة المؤسِّسة لعلم البلاغة كادت أن تتم، وكادت أن تنضج،

رأوا أنه من متطلبات العصر تقديم نماذج قِرائية لهذه الكتب؛ يعني أن يقدِّموا لطلاب العلم منهجًا يقرأون به هذه الكتب، كيف تقرأ (الدلائل)؟ كيف تقرأ (المثل السائر)؟ كيف تقرأ (المفتاح)؟

فكل الحواشي، وكل الشروح، وكل التقارير، وكل كتب التنبيهات إنما هي كتبُ قراءةٍ ناقدةٍ لمقالات أهل العِلم، فهو يتعامل مع بيان عبد القاهر، مع بيان السكَّاكي، مع بيان فلانٍ كما يتعامل مع القصيدة، فهو هنا شارحٌ لنصٍّ، وليس مؤسِّسًا لمعرفةٍ، فأنت تدرس نصًّا علميًّا كما تدرس نص (النظرات والعبرات والفضيلة) لمصطفى المنفلوطي، إلَّا أن هناك مناط القول قولٌ أدبيٌّ، وهنا مناط القول قولٌ علميٌّ.

الفرق بين بلاغة الأسلوب العلمي وبلاغة الأسلوب الأدبي:

الأسلوب العلمي: يحتاج إلى دقةٍ، بلاغته في دقته، وليس في المعاني الطريفة أو اللطيفة التي تبتهج لها النفوس، والعلم تكوين، فهو يكوِّنك، العلم يتعامل مع العقل، يكوِّنك إنسانًا فاعلًا في هذه الحياة، فبالتالي يحتاج إلى دقةٍ، لغة العلم لغةٌ دقيقةٌ للغاية.

أما الأسلوب الأدبي: نحن نقرأ الأدب لتبتهج النفوس، الأدب وظيفته تثقيفٌ؛ ولذلك اسمه أدبٌ، يعني يؤدِّبك، فالنثر الأدبي نثرٌ يحاول أن يهذِّب وجود الآدمي، كتبٌ للتربية، للتهذيب، للتثقيف، لأكون إنسانًا راقيًا.

فلا بد أن نفرّق بين كتابٍ أدبيٍّ أو أسلوبٍ أدبيٍّ وأسلوبٍ علميٍّ، فبينما لغة العلم دقيقةٌ للغاية، تجد اللغة الأدبية لغةٌ تهويمية، يحاول أن يطوِّف بك في الآفاق قدر الطاقة.

فعلينا أن ندرك تمامًا كيف نقرأ كتابًا علميًّا؟ وكيف نقرأ كتابًا يقرأ كتابًا علميًّا، فلا تضيق صدورنا حين نجد تدقيقًا في عبارةٍ، حين نجد تدقيقًا في كلمةٍ، حين يعترض، حين كذا، كل هذا داخلٌ فيما يُسمَّى بالقراءة الناقدة.

أنواع النقد:

النقد خمسة أنواعٍ: نقد تفسيري، نقد تنظيري، نقد تكميلي، نقد تقويمي، ونقد تقويمي تقديري، والأخير هذا هو أعلاها:

(1) النقد التفسيري:

النقد التفسيري هو أول مهارات النقد، وأقل مستويات النقد، ولا يمكن أن تنتقل إلى المستوى الذي بعده إلَّا إذا تمكنتَ من مهارة النقد التفسيري للنصوص.

بعض طلاب العلم يظن أن النقد هو أن تبيِّن مساوئ الناس، تبيِّن مساوئ ما تنقد، هذا خطأٌ شديدٌ جدًّا! هذه معرفةُ العامة، لكن كلمة نقدٍ إنما لها وجوهٌ كثيرةٌ، أيسرها وأسهلها النقد التفسيري، أن يكون نقدك نقدًا

شـارحًا، نقدًا مفسِّـرًا، نقدًا مسـتخرجًا ما في النص، مسـتنبطًا ما في النص، علمًا بأن استنباط المعاني الطريفة في النص أمرٌ صعبٌ جدًّا.

(2) النقد التنظيري:

بعد النقد التفســـيري أنت مطالبٌ بأن تقوم بعملية نقدٍ أخرى، منها نقد تنظيري، يعني تناظِر هذا الشـــيء بشـــيءٍ آخر لتقوم بعملية موازنةٍ بين النصوص بعضها وبعض.

(3) النقد التكميلي:

هناك أيضًـا النقدُ التكميليٌّ التتميميٌّ، لا يوجد نصٌّ كاملٌ، فأنتَ تقوم بالنقد لتُكْمِل هذا النص وتضيف إليه، وهذا أيضًا دربٌ من دروب النقد.

(4) النقد التقويمي:

النقـد التقويمي بمعنى أن تُقوِّم مـا فيـه عِوَج، أخطـأ فلا بـد من أن تقوِّم هذا الخطأ.

(5) النقد التقويمي (التقديري):

هنـاك أيضًـــا نقـدٌ تقويمي تقـديري، وهو أعلى أنواع النقـد! ومعنـاه أن تحكم بأن هذا صوابٌ، أو هذا خطأٌ.

فلا بد وأن نمارس هذه الأنواع كلها من النقد، فأعلاها –كما قلتُ– النقد التقديري؛ أي أن تصير قاضيًا، أن تصير حكَمًا بين هؤلاء العلماء، وبين هؤلاء السادة.

كتاب (المطوَّل) كتاب قراءةٍ لنصوصٍ:

لا بد أن ندرك تمامًا أن كتاب (المطوَّل)، وما شاكله إنما هو كتاب قراءةٍ لنصوصٍ، كتابٌ يعلِّمنا كيف نقرأ النص العلمي، وكيف ننقده بمستويات النقد المتعددة.

إذا أدركتَ هذا؛ ففي هذه الحالة عليك أن تهيئ نفسك بامتلاك هذه الأدوات التي تعينك على أن تُعْطي هذا الكتاب حقَّه؛ لأنك إن قرأته بغير هذه الطريقة فقد ظلمته!

وبالتالي تدرِك مدى ضلالة أولئك الذين صبُّوا جام غضبهم على أسفار الشروح والحواشي والتقارير، لم يَعْرِفوا لِم خُلِقت هذه الكتب؟!

ونحن الآن قد توقفنا، لا نكتب حواشيًا الآن، لا نكتب تقارير على الكتب، لماذا؟ لأن هذه الكتب قد قامت بالمهمة؛ قامت بمهمة تعليمنا كيف نقرأ، فنبدأ الآن نكتب كتبًا جديدةً، نأتنف أو نستأنف كتبًا جديدةً، هذا ما أردتُ أن أشير إليه جوابًا عن سؤالٍ واعتراضٍ قد وُجِّه.

إرشادات قبل البدء في قراءة (المطوَّل):

قبل أن تقرأ المســـألة في (المطوَّل)، اقرأها في كتابٍ آخر لتســـتحضـــر القضــــية، تعرِف ما معنى علم المعاني، علم البيان، علم البديع، الفرق بين هذا، وبين هذا، الفرق بين الفصــــاحة والبلاغة، إلى آخر هذه الأمور، هذه أمورٌ لا بد وأن تكون حاضرةً في وعيك، لا تحتاج إلى أن يقال لك قولًا تأسيسيًّا لها، ولكن يُقال لك قولًا ناقدًا لها، أو قارئًا لها.

[مقدَّمةٍ وثلاثة فنونٍ]

في الأسبوع الماضي كنت قد قلتُ أن السعد قال: إن الخطيب قد بنى كتابه على [**مقدَّمةٍ وثلاثة فنونٍ**]، وهذه الفنون هي ثلاثة علومٍ، وقلتُ أنه سمَّاها فنونًا ليبيِّن لك أنها فيها شــــيءٌ من التنوع، وأنها متكاملةٌ، وأنه يُبنى العِلم الثاني على الأول، والثالث على الأول والثاني، وبالتالي تعرف بماذا تبدأ؟ وبماذا تنتهي؟

بعض الكليات يبدأ بعِلم البيان باعتبار أنه أســـهل، وباعتبار أنه أقل قضايا.

نقول له: أنت تقلِب القضــــية، أنت تريد أن تدخل البيت من الطابق الثاني! لا يصـــلُح، بعض كليات الآداب تدرِّس للطالب في الصـــف الأول علم البيان؛ باعتبار أن التشـبيه والاسـتعارة أمورٌ سـهلةٌ جدًّا، لكن هذا من حيث المنهج العلمي خطأٌ شنيعٌ جدًّا!

لأنني وأنا أدرِّس الطالب تشـبيهًا لا بد وأن يعرف تكوين هذا التشـبيه، هذه الصورة التشبيهية التي أمامه يلزم أن يعرف هي مكونةٌ من ماذا؟ المشبَّه هذا مكونٌ من ماذا؟ المشبَّه به مكونٌ من ماذا؟ ما علاقة المشبَّه بالمشبَّه به، كـل هـذه أمورٌ تعود إلى علم المعـاني، فـإذا كـان هو لا يعرف علم المعـاني، فكيف يقرأ هذه الصورة التشبيهية؟!

لما أذكر له قول الله تعالى: ﴿**كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ**﴾[يونس:24]. هو يحتاج أن يعرف مكوِّنات هذا المشـبَّه به، الصـورة التكوينية، بِنْيَة هذا المشـبَّه، كيف يعرف وهو لم يدرس بِنْيَةً! فالذي يتولَّى هذا إنما هو علم المعاني.

إذًا فالمسألة ليست مسألة أسهل وأيسر، المسألة مسألة أيهما يُبنى على الآخر؟ فهناك خطأٌ منهجيٌّ في مثل هذا.

كنتُ قد توقفتُ عند كلمة [**مقدَّمةٍ**]، وهنا يأتي النقد التفسيري من السعد للخطيب، يقول: لماذا نكَّر كلمة مقدمة؟ ثم لَمَّا جاء يتكلَّم في العلوم عرَّفها؟

الأصل في الأشياء التنكير، إذًا العُدول: ما ليس عُدولًا في تنكير المقدمة، وإنما العُدول من التنكير إلى التعريف هو الذي يحتاج إلى شيءٍ آخر، فهو يقول: إن كلمة [**مقدَّمةٍ**]، هو لم يقل: المقدمة، قال: [**مقدَّمةٍ**]، طيب، لماذا نكَّرتَ؟

قال: لأنني لو عرَّفتُ -جئتُ بـالألف واللام- فالألف واللام لا بد أن يكون التعريف هنـا إمـا تعريف جنسٍ، أو تعريف اســـتغراق، أو تعريفٌ عهديٌ، وأي واحدٍ منها لا يصـــلُح هنا؛ لأنه لم يســـبق قبل ذلك ذِكرٌ للمقدمة؛ فبالتالي لا بد وأن تكون كلمة [**مقدَّمةٍ**] هنا نكرة.

إذًا هنا يحاول أو يوجِّه المقْـــتَضِي للخطيب أن يأتي بعبارته [**مقدَّمةٍ**] نكرة، ويأتي عندما يفتح بابًا لعلم المعاني، ويفتح بابًا.. يقول: الفن الثاني، الفن الأول، وهكذا، يعرِّف هذا الشيء.

إذًا هو يحاكمه محاكمةً أسـلوبيةً، وبيان المقْتَضِـي للتعريف، والمقْتَضِـي للتنكير هذا أمرٌ يدخل في صـــميم قراءة النص، لا بد أن أعرف متى تُنَكَّر الكلمـة؟ ومـا أغراض التنكير؟ متى تُعَرَّف؟ ومـا أغراض التعريف؟ لأن كـل هذا يساعدني وأنا أقرأ القرآن الكريم.

في كثيرٍ من المواضع تجد الكلمة الواحدة تأتي في موضعٍ نكرةً، وتأتي في موضعٍ آخر مُعَـرَّفَةً، تأتي مُعَـرَّفَةً مرةً بـ(الألف واللام)، مرةً مُعَـرَّفَة بالإضافة، مرةَ مُعَرَّفَة بكذا، فلا بد أن أكون أعرف المقتضِـيات -يعني الأسـباب- التي تدعو إلى أن تأتي الكلمة هكذا:

﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾[البقرة:126].

ويأتي في موضعٍ آخر ويقول:

﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**﴾[إبراهيم:35].

مع أن الموضع واحدٌ، فلِم يقول أولًا: ﴿بَلَدًا﴾[البقرة:126]. ثم يقول بعد ذلك: ﴿الْبَلَدَ﴾[إبراهيم:35]. كل هذا مهمٌّ جدًّا عندنا ونحن نقرأ القرآن، أو نقرأ غير القرآن، هذا ما أردتُ أن أعَرِّج عليه سريعًا في هذه المسألة.

وظيفة علم المعاني:

نأتي إلى وظيفة علم المعاني، وهذا مهمٌّ جدًّا عندنا، وقبل أن نذكر وظيفة علم المعاني نذكر أولًا:

وظيفة المنطق: علم المنطق هو قواعد تعصم العقل عن الخطأ في التفكير، فإذا التزمتُ بقواعد علم المنطق فأنا لا أخطئ في تفكيري، أبني الأشياء بعضها على بعضٍ، موضوعٌ ومحمولٌ ونتيجةٌ، وهذا الكلام الذي درستموه قبل ذلك.

وظيفة النحو: في النحو قواعد تعصم اللسان من الخطأ في أداء أصل المعنى.

☼ فما هو أصل المعنى؟

هو إثبات شيءٍ لشيءٍ أو نفيه عنه.

فلما أقول: (كتب محمدٌ الدرس) فماذا فعلتُ؟ أسنِد الكتابة إلى شخصٍ اسمه محمدٍ، وأوقِعها على شيءٍ اسمه الدرس، أو أقول مثلًا: (أكرم محمدٌ عليًّا)، بمجرد أن وضعتُ (الضمة) على محمدٍ -كما في المثال المذكور- أدركتُ أن فاعل الإكرام محمدٌ، وأن الْمُكْرَم إنما هو عليٌّ.

لو كان قصـــدي أن الذي فعل الإكرام عليٌّ، ثم قلتُ: (أكرم محمدٌ عليًّا)، فأنا ضـللته، لماذا؟ لأنه فهم أن محمدًا فاعل الإكرام، بينما محمدٌ هو الْمُكْرَم.

فهذه العلامة –علامة الإعراب– هي التي تدلك على مراد المتكلِّم، فلو أخطأ في وضع علامة الإعراب فهذا سيؤدي إلى خطأ الفهم عنه، هذه هي وظيفة علم النحو، فهو لا يعمل إلَّا في مجال تأدية أصل المعنى.

أصـــل المعنى هذا نحن نحتاج أحيانًا إلى معانٍ زائدةٍ عليه، قد يخطئ الإنسان فيها، الذي يعمل في المعاني الزائدة هو علم المعاني.

الأصل في كتب النحو أنها لا تتعرَّض إلَّا لأصل المعنى، لكن حين تقرأ في كتب النُّحاة تجد أنهم يتجاوزون ذلك إلى المعاني الزائدة، فنقول: حين يتجاوز النحوي المعنى الأصلي إلى المعنى الزائد تحوَّل من كونه نحويًّا إلى كونه بلاغيًّا.

ولذلك كثيرًا ما يأتي طلاب عندنا، ويستخرج العقل البلاغي من كتاب نحوٍ، يقول: التفكير البلاغي في كتاب سيبويه، الذي ليس فاهمًا سيقول له: كيف تدرس بلاغة في كتاب سيبويه، وكتاب سيبويه كتاب نحو؟!

نقول له: لا، هو لن يتعرَّض لسـيبويه إلَّا حين يتجاوز سـيبويه أصـل المعنى، ويبدأ يتكلَّم في المعاني الزائدة على أصل المعنى، فيتعامل معه على أنه بلاغيٌّ.

فكتاب سـيبويه من الكتب التي تخلط بين ما هو أصـل المعنى وبين المعاني الزائدة، وعُظم كتب النحو هكذا، عُظم كتب النحو تجمع بين مهمة النحو ومهمة البلاغة، لأن علم البلاغة مترتبٌ على علم النحو.

ولذلك تلاحظون جيدًا أن عبد القاهر لم يكن بلاغيًّا، آخر مسـتوى عِلمي عند عبد القاهر صـار به بلاغيًّا، عبد القاهر كان رجل عقيدةٍ، رجل علم كلامٍ، ثم صـار نحويًّا، فقدَّم لنا كتابًا من ثلاثين مجلدٍ، اسمه (المغنِي)، ثم اختصره في كتاب سمَّاه (المقتصَد).

كتاب (المقتصَد) موجودٌ ومحقَّقٌ، ومنذ عشرين عامًا تقريبًا كان يُباع هنا في مصر، المجلَّد الواحد بجنيه، هو مطبوعٌ في العراق أصلًا، ويوجد مركز توزيع الكتاب العراقي في شـارع طلعت حرب، مهما كان الكتاب ضـخمًا، كل جزءٍ بجنيهٍ واحدٍ فقط! وفوق ما تشتريه تأخذ هدايا مجانية.

المهم عندنا أن عبد القاهر كان في الأصـل رجل عقيدةٍ، رجل علم كلام، فكتب لنا كتابه (الشـافية)، وهذا من كتب علم الكلام، ثم كتب لنا كتابه (المغنِي)، ثم اختصره بعد ذلك فكتب (المقتصِد)، وله (العوامل المائة)، وله (الجُمَل)، إلى آخر هذه الكتب في النحو.

لكن الناس لا يعرفون عبد القاهر إلَّا بأنه رجل بلاغةٍ، فلما نضـج في الاثنين —علم الكلام والنحو- بدأ ينتقل من أصـل المعنى إلى المعنى الزائد؛ فكتب لنا هذين الكتابين: (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز).

الناس يخطئون فيقرأون (دلائل الإعجاز) أولًا، نقول: أخطأتَ الطريق، اقرأ أولًا كتاب (أســرار البلاغة) لأنه هو الأصــل، ثم بعد ذلك تقرأ كتاب (دلائل الإعجاز)، فلا بد أن ندرك نقرأ ماذا قبل ماذا؟

بعض الكتب تقول لك: (أســرار البلاغة في علم البيان) كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا، هذا خطأٌ شنيعٌ! وأيضًا يقول: (دلائل الإعجاز في علم المعاني) هذا خطأٌ شنيعٌ، لا كتاب (أسرار البلاغة في علم البيان)، ولا كتاب (دلائل الإعجاز في علم المعاني)، ولا عبد القاهر يستطيع أن يقسِّم البلاغة إلى علم معانٍ وعلم بيانٍ، هذه تقسِمةٌ مستحدثةٌ في القرن السادس الهجري، عبد القاهر ما كان يقسِــم البلاغة إلى عِلمين: علم معانٍ وعلم بيانٍ، ما كان يفعل ذلك أبدًا.

<u>أهمية علم النحو لمن يدرُس علم المعاني:</u>

لكي تتمكن من علم المعاني لا بد وأن تكون متمكنًا من علم النحو، وهذا مهمٌّ جدًّا، فمثلًا إذا كنت تدرس قضــيةً متعلقةً بالمســنَد إليه فلا بد عليك أن تعرف أحكام المسند إليه في النحو.

النحوي حين يتكلَّم في المسند إليه يتكلَّم من ثلاثة جهاتٍ:

1. **ما هو واجبٌ.**
2. **ما هو جائزٌ.**
3. **ما هو ممتنعٌ.**

ثلاثة أشياءٍ يدرسها في كل قضيةٍ، ما يجب في المسند إليه، ما يجوز فيه، ما يمتنع فيه.

نترك له شيئين؛ الأول والثالث، ما هو واجب، وما هو ممتنع، فالبلاغي لا يشتغل بما يجب، ولا يشتغل بما يمتنع، لا يشتغل إلَّا بما هو جائز، لماذا؟ لأن علم بلاغتك قائمٌ على نظرية الاستبدال.

☼ ما معنى نظرية الاستبدال؟

أنت سمعتَ نصًّا، أنت درست هذا في المرحلة الإعدادية، فالأستاذ كان يمتحنك بأن يأتي ببيتٍ، ويحذف كلمةً، ويقول لك: لو وضعنا كلمة كذا، فأيهما أجمل؟ فهذه هي عملية الاستبدال، أستبدل كلمةً بكلمةٍ قريبةٍ منها، فناظِر بين أثر هذه الكلمة، وأثر هذه الكلمة، وقل لنا: أيهما أجمل؟

فعلم البلاغة قائمٌ على هذا، أن يأتيني تركيبٌ، أنظر فيه جيدًا، ثم أتخيَّل الإمكانات الأخرى التي يمكن أن نعبِّر بها، ونناظر بين هذا التركيب القائم، وهذا التركيب المحتمَل، فإذا امتلكتُ هذه القدرة فأنا في هذه الحالة يمكن في يومٍ من الأيام أن أكون رجلًا بلاغيًّا.

فعِلم المعاني وظيفته أنه لا يعمل إلَّا فيما هو جائزٌ، فيما هو ممكنٌ، ما له بدائل، فالذي لا بدائل له لا يتعرَّض البلاغي له، فهذا أشبه كما قلتُ -قبل ذلك- بامرأةٍ لا تملك إلَّا ثوبًا واحدًا، هو جميلٌ جدًّا، وأنيقٌ جدًّا عليها، لكن لا أستطيع أن أصفها بأنها أنيقةٌ، بأنها بليغةٌ يعني في لباسها،

لماذا؟ لأنها ليســـت لديها اختيارات، لكن لو لديها اختياراتٌ، واختارت شيئًا، هنا نستطيع أن نحكم عليها بأنها بليغةٌ أو غير بليغةٍ في ملبسها.

فبالتالي هذا يضـــع على كاهلك أنك في كل جملةٍ تقرأها في مثل هذا الكتاب تضع لها بديلًا، أكان يمكنه أن يقول كذا؟ طيب، إذا كان يمكنه أن يقول، فلِم قال؟ ولِم ترك؟

بهذه الطريقة ستستغرق مني الصفحة الواحدة في الكتاب يومًا أو يومان لكي أحذف جملةً، وأضـــع مكانها جملةً، لكن بعد شـــهرٍ أو شـــهرين، أو ثلاثة، تصـير الأمور معك ميسـورةً، لماذا؟ لأنك صِـرتَ ذا دُرْبةٍ، وذا مَلَكَةٍ، فتدرك الأشياء بعضها ببعضٍ، وهذا نسميه التنقيح.

نقول للطلاب: دائمًا لما تكتب نقِّح، يعني ضـــع شـــيئًا، هذا صـــحيحٌ الذي قلتَه، لكن هناك إمكاناتٌ أخرى، فانظر أيهما أفضـل؟ وأيهما أجود؟ وأيهما أعلى؟ لأنه يجب عليك أن تقدِّم للناس ما هو أجود عندك؛ لأنه يليق بهم أن يُقَدَّم لهم ما هو أجود! ويليق بك أنت أيضًا أن تقدِّم للناس ما هو أجود! فبالتالي نقول: أن علم المعاني يعني المعاني الزائدة.

☼ طيب، لماذا لم يقل المعاني الزائدة؟

- نقول: لم يقل المعاني الزائدة ليقول لك: إن أصـل المعنى عندي ليس له قيمةٌ، فبالتالي لا أعتد به، فلا يطرأ على عقلك أني أقصد أي معنًى سوى أنه كان معنًى زائدًا.

فهذا نسميه بلاغة الحذف، أو بلاغة السكوت، يحذف الشيء ليقول لك أن ما هو غير ذلك لا أعتد به.

ولذلك السكَّاكي ينص في (المفتاح) على: "**أن المعنى الأصلي -الذي يهتم به النحوي- اهتمامي به بلاغيًّا كاهتمامي بأصوات الحيوان**".

بعض الناس يفهم كلام السكَّاكي على غير وجهه، يقول أنه يسب ما يشتغل به النحوي!

نقول لك: لا، الرجل يبيِّن لك مناط النظر عنده، يقول لك: أيمكن أن أهتم بأصوات الحيوانات؟ تقول له: لا، ويقول لك: وأنا أيضًا لا أهتم بأصل المعنى، لا لأنه ليس فيه شيءٌ، ولكن لأن ما فيه لا أريده، فما دمتُ لا أريده فأنا لا أهتم به، فهو لا يشتم النُّحاة إطلاقًا، فالرجل يقول: أنا لا أعتني بأصل المعنى، وأنا -في هذه الحالة- أهتم بما زاد على أصل المعنى؛ لأنه هو مناط التفاضُل.

دائمًا البلاغي يهتم بالأشياء التي يقع التفاضُل فيها، أصل المعنى لا تفاضُل فيه؛ لأنه شيءٌ واحدٌ، فلا يتفاضل الناس فيما كان شيئًا واحدًا؛ ولذلك عبد القاهر -وهذا نصٌّ لا بد أن تحفظوه- يقول: "**لَا فَضِيلَةَ إِلَّا حَيْثُ اخْتِيَارٌ وَصَنْعَةٌ وَاسْتِدْرَاكُ جَمَالٍ**".

فلا تتحقَّق لك الفضيلة إلَّا أن تلتزم في شغلك بثلاثة أشياء:

(1) **تختار بين بدائل:**

والذي تختاره تُجري فيه صـنعةً، وتعمل فيه بدائل، لو ضـربنا مثلًا على المكان الذي نحن فيه، الشيخ خالد قبل أن يؤسِّسه لا بد أن يكون قد نظر في أكثر من مكانٍ، ثم يختار هذا المكان، ينظر إلى مسـتوى الضـجيج، مستوى الزحام، ثم يختار المكان الأليق بمؤسَّسةٍ تعليميةٍ، فلا يصلُح مثلًا أن أضع مدرسةً بجوار محطة القطار، فهذا خطأ؛ لأنه لن يؤدي وظيفته.

فبالتالي الأول تختار المكان، وبعد أن تختاره تُجري فيه صـنعةً، اختار الشـيخ خالد المكان، وبدأ يزينه ويحسـنه، بحيث يهيئ هذا المكان، إذًا هو يُجري فيه صنعةً، وهذه الصنعة يريد أن يصل بها إلى جمالٍ معينٍ.

فبالتالي كل شيءٍ تصنعه، فعليك لكي تكون لك فضيلةٌ، ويكون لك ما يميزك على غيرك؛ أن تختار بين بدائل، لو ليس معك إلَّا شـيءٌ واحدٌ، نقول لك: لا فضيلة.

(2) **تُجرِي صنعةً فيما اخترتَ من البدائل:**

بعد اختيارك بين البدائل تُجرِي صـنعةً فيما اخترت، تجميل، تقدِّم، تؤخِّر، تحذف.

(3) **تهدف بعد الاختيار والصنعة أن تستدرك جمالًا:**

بعد ذلك يكون هدفك من الاختيار، ومن الصنعة، أن تستدرك، يعني تطلب، أن تدرك شيئًا، (السين) و(التاء) للطلب، أن تستدرك جمالًا، هذا الجمال تنشرح به النفوس، لأنه مهمٌّ جدًّا! ليس المهم أن تتكلَّم، المهم أيضًا أن تهيئ النفوس التي تريد أن تحادثها لتسمع عنك؛ وإلَّا سيكون عملك عملًا غير مثمرٍ!

ولذلك تلاحظون في القرآن الكريم قبل أن يأمرك، وقبل أن ينهاك، يهيئك لما سيأمرك به، أو ينهاك عنه، لا يأتيك مباشرة ويقول لك: افعل، إنما يقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لازم أن تقف عندها، إنه يهيئك! يتحبَّب إليكَ! يصِفك بأحب الصِّفات إليه منكَ!

فدائمًا الإنسان يحب أن يُذكر بالصفة الجميلة التي فيه، فيقول لك: أحب أفعالك إليَّ الإيمان، فأنا أحبك له، فتشعر بالمؤانسة بينك وبين ربك.

ثم يذكِّرك، انتبه! بيني وبينك عهد، ميثاق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]. فأنا أذكِّرك، لما أقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أذكِّرك بماذا؟ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فانتبه! فالآتي هذا، الأمر الآتي والنهي الآتي، جاء ليوثِّق العلاقة بيني وبينك، فقبل أن يكلِّمك يهيئكَ، فالبلاغة هكذا، أنك تستدرك بكلامك جمالًا نفسيًّا.

الناس يتوهَّمون أن الشعر مجرد شخص (يفضفض) عن نفسه! كلا، هذه رسالةٌ، الشاعر رسول قومه في الجاهلية؛ ولذلك العرب ما كانوا يحتفون بميلاد أحدٍ إلَّا بميلاد رجلين: فارسٌ وشاعرٌ؛ لأن:

- الشاعر هو الذي يحفِّز الناس للمعالي، وهذا يمثل الجبهة الداخلية.
- والفارس يدافع عن الجبهة الخارجية.

فعندهم الشاعر يمثل وزارة الإعلام، ووزارة الثقافة والإرشاد القومي، هو يقوم بكل هذا، والثاني وزارة الدفاع عندنا؛ الذي هو الفارس.

ولذلك تجدون كل شاعرٍ يهتم بمسألة المدح، ومسألة الهجاء، ومسألة الفَخر، الشعر العربي قائمٌ على هؤلاء الثلاثة.

☼ لماذا يختص الشعر العربي بالمدح والهجاء والفخر؟

هو في المدح مثلًا يقدِّم لك النموذج الأمثل، هو لا يمدح ليكسب مالًا، فالشاعر لا يكتب قصيدةً من أجل أن يحصل مقابلها على المال، هذه مسألةٌ ثانويةٌ.

المتنبي كثير من سادة قومه في زمانه عرضوا عليه آلافًا مؤلَّفةً من المال لكي يمدحهم أو يهجوهم فأبَى، لا يمدح، ولا يهجو، لأن هناك أناسٌ يتشرَّفون بالهجاء! يعني كونك تهجوه يعتبر هذا جميلٌ، فلأن شتمني! لأنه على ذُكرٍ منك، فهو يريد أن يكون على ذُكرٍ منك، سواء بخيرٍ أو بشرٍّ، المهم أن فلان ذكرني، وضعني في دائرة تفكيره، وما دام قد فعل هذا فأنا شيءٌ كبيرٌ!

فالشـــعراء حين يمدحون إنما يقدِّمون النموذج الأمثل، وكذلك حين يفتخرون، وحين يهجون يقدِّمون النموذج الســـيء، هذه وظيفته، فمن هنا كان الشعر عندنا شيئًا له قيمةٌ عاليةٌ جدًّا.

أهمية علم المعاني:

فعلم المعاني هو العلم الذي يمكنني من أن أحترز من أن أخطئ في تأدية المعنى، أي معنى؟ المعنى الأصلي أم المعنى الزائد؟ المعنى الزائد، فلما تجد البلاغي يقول لك: المعنى المراد؛ اعرف أنه لا يكلمك على أصـــل المعنى، وإنما يكلِّمك عن المعاني الزائدة.

والمعاني الزائدة تبدأ ولا تنتهي، مقدارها بمقدارك أنتَ، قدرتك على الاستخراج، الكلام البليغ كلامٌ يبدأ في العطاء ولا ينتهي، وإنما يعطيك على قدر وعائك.

لو أن رجلًا ثريًّا جدًّا يعطي الناس ما يشاءون، وذهبتُ له بوعاءٍ صغيرٍ، سيضع لي على قدْر وعائي، كذلك لو قلبك وعقلك متسع، سيعطيك النص على قدر ذلك، فلا بد أن يكون قلبك نظيفًا، وعميقًا، ووسيعًا؛ لأنه لو لم يكن نظيفًا لن يضع لك فيه شيئًا!

فأنت لا بد أن تغسـل قلبك قبل أن تقرأ النص، تهيئ هذا القلب لأن يكون أهلًا لأن توضـــع فيه هذه المعاني؛ لأن المعاني التي في بيانك إنما هي جزءٌ منك! بيانك ولدُك! بيانك وعلمك وشِعرك وأدبك، كل هذا ولدُك من عقلك.

ولك ولدٌ من صُلبك، فلذلك التلميذ بالنسبة للشيخ هو ولده من عقله، فهو أحب إليه من ولده من صُلبه، لازم أن تعرف هذا! أن المشايخ يحبون طلابهم أكثر مما يحبون أولادهم، يورِّثون أولادهم متاع الدنيا، وهو متاعٌ زائلٌ، ويورِّثون تلاميذهم عِلمًا لا ينفد! يزيد ولا ينقص!

يلزم أن تعرف هذا الكلام جيدًا؛ لأنه لا يصير شيخًا إلَّا بك، هل يوجد شيخٌ بدون طلاب؟ فأنت الذي جعلته شيخًا، لو كان رجلًا علامةً، ولم يجد أحدًا يكلِّمه، ماذا يفعل؟! لا شيء.

فبالتالي لا بد أن تدرك تمامًا أن علم المعاني علمٌ يشتغل على المعاني الزائدة، وأنا الذي أُكَثِّر هذه المعاني، بامتلاكي لقدراتٍ.

وهذا تلاحظونه في كتب التفسير، تجد عالِمًا يفسر آيةً، سطرين أو ثلاثة وينتهي من تفسيره!

وتجد آخر! قارن تفسير الرازي لآيةٍ بأي تفسيرٍ آخر، ستجد أنه فيضٌ! بمجرد أن يتناول الآية يقول لك: وفيها عشر مسائل! ويفيض معك في العشر مسائل، وذلك في كل العلوم، فهذا من قوة وفحولة عقله!

هناك تفاسير تقرأها ولا تكاد تشعر بالمعنى القرآني، نعم أعرف المعنى البياني للكلمة، أو المعنى اللغوي للآية، لكن ليس هذا هو المعنى الذي يريده الله سبحانه وتعالى، الله يريد معنًى نسميه المعنى القرآني.

☼ **كيف أعرف أن الذي فهمته هذا معنًى قرآني؟**

- أقول لك: إذا شعرت بأمرين وأنت تقرأ الآية:

☼ إذا شعرتَ بجلال الله في قلبك، فأنت شعرت بجلال الألوهية.

☼ وإذا شعرتَ بجمال الربوبية.

عندما تحس بهذين المعنيين في عقلك؛ إذًا المعنى الذي فهمته هو المعنى القرآني، غير ذلك فإن الذي فهمته لا علاقة له بالقرآن، بل له علاقة باللغة، وليس بالقرآن، يمكن أن تجده في غير القرآن.

فسِمة المعنى القرآني بشعورك أنت، بماذا تشعر؟ تشعر بجلال المعنى والهيبة أمام هذا المعنى؟ تشعر بعطاءات الربوبية؟ يوم أن تصل إلى هذا؛ فأنت هنا في رياض القرآن، ولست في مجرد بيانٍ.

إذًا علم المعاني هو علمٌ يُحترَز به -يعني يُتَّقى به- الخطأ في تأدية المعنى.

☼ **هذا بالنسبة لمن؟ بالنسبة للبلاغي أم بالنسبة للبليغ؟**

- هذه الوظيفة إنما هي بالنسبة للبليغ وليست للبلاغي؛ لأنك تؤدي معنًى، البلاغي لا يؤدي معنًى، البلاغي يستنبط معنًى.

إذًا علم البلاغة بالنسبة للبليغ يجعله يحترز -وهو يتكلَّم- عن أن يخطئ في تأدية المعاني الزائدة، ويساعدني أنا -البلاغي- على ألَّا أخطئ في استخرج المعاني الزائدة من النص.

إذًا علم البلاغة له فائدتان: فائدةٌ تعود إلى البليغ، وفائدةٌ تعود إلى البلاغي.

دائمًا نقول: الأصل في البلاغي أن يكون بليغًا، وليس بلازمٍ أن يكون البليغ بلاغيًّا من الناحية العِلمية، ولكنه بلاغيٌّ بالفطرة، فهناك بلاغةٌ بالفطرة، وبلاغةٌ علميةٌ.

البلاغة بالفطرة: تجده هو جُبل على هذا، مثل امرئ القيس، فامرئ القيس لا يعرف تشبيه تمثيلي، ولا يعرف الاستعارة، لكنه يمكنه أن يؤدي هذا، بماذا؟ بالفطرة.

سيدنا رسول الله لا يعرف هذه المصطلحات العلمية، ولا يعرف تشقيقات البلاغيين، لكن نحن نستمد منه ذلك، إذًا هو -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بليغٌ بالفطرة، وليس بليغًا بالتعلُّم.

أما أنا فأنا بلاغيٌّ بالتعلُّم، وليس بالفطرة، فنحن نقول: "**كل بليغٍ هو بلاغيٌّ بالفطرة، وليس بلازمٍ أن يكون بلاغيًّا علميًّا**".

العلمي: إن أتيت لشاعرٍ، وقلتَ له: عرِّف لي التشبيه التمثيلي، سيقول لك ما هو التشبيه التمثيلي؟! لا يعرف.

وكل بلاغيٍّ لا بد وأن يكون بلاغيًّا وإلَّا كان ممن عَلِم ولم يعمل بما علم، وأنت تعرف تصنيف الذين يعلَمون ولا يعملون، الذين هم المغضوب عليهم: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾

[الفاتحة:7]. المغضــوب عليه هو مَنْ علم الحق والخير، ولم يعمل به، والنموذج الأمثل بهذا الصنف هم اليهود.

ولذلك سيدنا رسول الله –صلَّى اللهُ عليه وسلَّم– فسَّر هذه الجملة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم اليهود، وهذا نسميه تفسيرٌ بالمثال.

☼ ما معنى تفسيرٌ بالمثال؟

– معناه أن هناك طوائف أخرى تدخل في مدرســة اليهود، مدرســة المغضوب عليهم، مثل أستاذ فقهٍ مقارن ولا يصلِّي مثلًا، يعرف كل أحكام الشــريعة ولكن لا يطبِّق هذا! نقول له: أنت تدخل في صــنف المغضــوب عليهم!

الصـــنف الآخر الذي يعمل بغير علمٍ، اسمه ضــال، الراهب الذي في الدير هذا، هذا يتعبَّد ولكنه على غير علمٍ، فهو ضالٌّ.

بالتالي نقول: أي بلاغيٍّ، أي أستاذ بلاغةٍ حين يكتب ولا يكتب بلغةٍ تليق بالعلم الذي يتكلَّم فيه، نقول له: أنت تعلَم ولا تعمل!

ومن هنا جاءت تدقيقات الســـعد للخطيب، يحاكمه على كل كلمةٍ، لماذا؟ يقول له: لأنك رجل بلاغةٍ، فينبغي أن يكون اســـتعمالك للكلمة وللتركيب مطابقًا لما تريد؛ حتى لا أضل في فهمك.

فالتدقيقات هذه نفهم منها أن الســعد، وكل الشــرَّاح، وكل المحشــين، أنهم يقولون: على رجل البلاغة أن تكون كل كلمةٍ في كتابه موزونةً بميزانٍ،

مطابقةً لمقتضَـــى الحال، فيكتب في علم البلاغة بلغةٍ تليق بالمســـألة العلمية التي يتكلَّم فيها!

ولذلك تلاحظون، إخواننا الذين يقرأون (أســـرار البلاغة)، ويقرأون في (دلائل الإعجاز) تجد أسـلوبًا عاليًا جدًّا! مدهش! لماذا؟ هو نفس الكتاب، اقرأ صـفحتين في (أسـرار البلاغة)، واقرأ صـفحتين في (دلائل الإعجاز)، ثم اقرأ صفحتين في (المقتصِد)، أو (المختصَر)، تجد فرقًا شاسعًا بين هذه اللغة، وهذه اللغة، لماذا؟ لأنه يستعمل لكل علمٍ اللغة التي تليق به.

فلا أكتب في الكيمياء وأستعمل تشبيهات واستعارات ومجازات وجناس وسجع، لا يصلُح! فهذا علمٌ يحتاج إلى الدقة، ولا مجال فيه البتة للخيال.

لكن لما تكتب بلاغة فعليك أن تكون لغتك موائمة -قدر الطاقة- للعلم الذي تتكلَّم فيه.

وهذا يبيِّن لك لماذا إخواننا الذين لم ينتبهوا إلى هذا يعيبون على الشرَّاح والمحشـين أنهم يدققون على استعمال حرفٍ أو استعمال كلمةٍ، نقول: هذا أمرٌ واجبٌ، ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا مخطئين!

إذًا عَرَفْنا علم المعاني بماذا يشتغل؟ يشتغل في أنك تملك القدرة على أن تبني صورة المعنى الذي في صدرك، هناك معنًى في صدرك أنت صنعته، لا بد أن يخرج في صورةٍ؛ هذه الصورة تكون مطابقةً لما في جنانك.

لذلك نقول: اسمه أسلوب صادقٌ وأمين، يعني أهم سمة من سمات الأسلوب البليغ أن يتَّسم بالصِّدق والأمانة، يعني مطابقًا لما في فؤادك، وأمين أي يُخرج كل ما هو مكنونٌ في قلبك، لا يدع معنًى في قلبك لم يكن في صورة منطوقك ما يدل عليه.

وهذا صعبٌ جدًّا جدًّا! لا يتحقق في بيان بَشَرٍ إلَّا في بيان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، هو الوحيد الذي بيانه مطابقٌ تمامًا لما في فؤاده! فلا يكون في فؤاده معنًى لم يكن في كلامه ما يدل عليه، ولا يكون في كلامه شيءٌ ليس له وجودٌ في فؤاده! هذا خاصٌّ برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وما عداه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- فالناس يتفاوتون.

تجده يقول كلامًا وهو لا يريده، وتجده يريد كلامًا ولا يقوله، فيستعين بعوامل خارجية، مثل أن يحرِّك يديه مثلًا، فكلها من وسائل الإبانة، فنقول له: لأن لسانك غير قادرٍ على أن يستخرج ما في فؤادك!

إذًا عليَّ أولًا أن أكون قَوَّامًا على ما في فؤادي، أفكر جيدًا جدًّا، وأرتِّب المعاني داخلي، حتى إذا ما اطمأننتُ إلى أنها قد نضجت، أبدأ أتكلَّم، وبالتالي لا يمكن لإنسانٍ عاقلٍ أن يتكلَّم قبل أن يفكر.

تلاحظون في المحاضرات، أن تجد أناسًا يعترضون عليك وأنت تتكلَّم، تلاحظونها في المحاضرات التي بها مداخلات، الشيخ يتكلَّم فتجد أحد الطلاب يعترض عليه! اصبر قليلًا حتى ينتهي من الكلام، وتفهم المسألة

جيدًا، ورتِّب في عقلك، ثم -بعد ذلك- اعترض، فهؤلاء نقول لهم: أنتم تتكلَّمون قبل أن تفكروا، وهذا لا يليق بعاقلٍ.

إذًا الأصل أن تفكِّر، أن يطمئن قلبك إلى ما أنتجه، ثم -بعد ذلك- أخرِجِ ما في فؤادك، هذا علم المعاني، هو الذي يهيئ لك.

يقول لي: طيب، مجرد أن أخرِجِ الكلام هكذا؟ أقول: لا، لا بد وأن يكون كلامك حسن الدلالة على معناك؛ يعني لا تُعَنِّي السامع في فهم معانيك، عبِّد له الطريق إلى مرادك.

☼ مَنْ الذي يجعل كلامي حسن الدلالة على معناي؟

علم البيان؛ ولذلك علم البيان وظيفته أن يشتغل في دلالة الصورة على المعنى.

لكي أقرِّب لك الأشياء وتحفظها، لو جئتك بآيةٍ أو بحديثٍ، وقلتُ لك: أريدك أن تنظر فيها نظرًا بلاغيًّا، ماذا ستفعل؟

تقول لي: سأنظر في خمسة أشياءٍ، فأي بلاغيٍّ -يقرأ أيَّ نصٍّ- لكي يكون قد أدَّى ما عليه، لا بد أن ينظر في خمسة أشياء، أن يدرس صورة الكلام الذي يقرأ أو يسمع، تركيبها، وعلاقات كل جزئيةٍ بعضها ببعض، إذًا أول شيءٍ:

(1) النظر في صورة الكلام.

(**2**) **ثم النظر في المعنى الذي حملته الصـورة:** هذه الصـورة حملت إليَّ معنًى، تنظر في هذا المعنى، وتدرسـه جيدًا جدًّا، ولا بد وأن يكون المعنى شريفًا، شرف المعنى.

شـرف كل شـيءٍ ذروته، ومن هنا سمَّينا الشُّـرفة، الشـيء الشـريف، والشيء الأعلى، ولكل شيءٍ شَرَفه، كل معنًى له ذروةٌ عُليا، يلزم أن تدرسه، هل هذا المعنى شريفٌ؟

ليس المقصود بشريف أنه يحث على الحق مثلًا، قد لا يحث على الحق، قد يكون كلامًا فاسدًا، لكنه أعلى درجات الفساد، فإذا هجوتَ فعليك أن تأتي بأعلى ما يُسـتقبح منه، لكي تُنَفِّر منه، مثل الصـورة الكاريكاتيرية، يرسـم صـورةً كاريكاتيريةً أشـوه ما يكون! فبالتالي المعنى لما تدرسـه لا بد أن يكون معنًى شريفًا ولطيفًا وطريفًا.

لطيفٌ يعني خفي؛ يعني لا يكون هذا المعنى كل مَنْ يسـمعه يفهمه، الأدب والكلام البليغ ليس هذا شـأنه، ما تسـاوَى الناس في فهمه ليس هو مناط نظر البلاغي.

فلا بد أن يكون معنًى لطيفًا خفيًّا، دقيق جدًّا؛ لأن شـغله أن يأتي بالطرائف، إذًا لطيفٌ خفيٌّ.

ثم طريف، طريف يعني متجـدد، الطرافـة هي التجـدد، وكـل خفيٍّ طريفٌ، وكل طريفٍ خفيٌّ، هناك تلازمٌ بين اللطف والطرافة.

إذًا المعنى في جنسه شريفٌ، والمعنى خفيٌّ لا يصل إليه إلَّا الصفوة، والمعنى كلما زدته نظرًا زادك عطاءً، مثل الجنة؛ لأنها جنة عقلك، البيان العالي جنة عقل القارئ والسامع.

والجنة لا يتكرر فيها الشيء، ما تأكله أمس ليس هو ما ستأكله غدًا، وبالتالي لن تقول: هذا أكلتُ مثله أمس! أصلًا لا يوجد شيء اسمه أمس في الجنة! ليس هناك أمس في الجنة، كأنك قد دخلتَ الآن، في كل يومٍ، فأنت في دهشك! هذا الدَّهش يلازمك في كل لحظةٍ في الجنة، فأنت ترى الجمال لأول مرة.

ولذلك ليس هناك سأم، ولا ملل، أليس هذا جديرٌ بأن نحاول أن ندخلها، لما تضيق معك الدنيا اقرأ فقط الآيات التي تتكلَّم عن الجنة، لا تستطيع أن تشتري دجاجة، اقرأ: ﴿**وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ**﴾[الواقعة:21].

إذًا تنظر في المعنى، هذا المعنى لا بد وأن يتحقَّق فيه أنه شريفٌ في جنسه، لا بد وأن يكون لطيفًا، يحتاج إلى تبصُّرٍ وتدبُّر، ولا بد أن يكون متجدِّدًا، القصيدة التي تقرأها اليوم، ثم تقرأها بعد شهرٍ مثلًا، فتعطيك ما أعطتك أمس، فليست بشيءٍ، إما لعيبٍ فيك أنت، وإما لعيبٍ في القصيدة.

(3) دلالة الصورة على المعنى، هذا هو الأمر الثالث الذي ينظر فيه البلاغي عند قراءته للنص، فيرى كيف دلَّت هذه الصورة على هذا المعنى؟

كيف فهمتَ من هذا الكلام هذا المعنى؟ هل دلَّك عليه بحُسْـــنٍ؟ أي لا توجد عراقيلٌ في الطريق، الطريق مُعبَّدٌ وإن كان طويلًا! لكنه مُعبَّد.

☼ كيف تصـل من قوله تعالى: ﴿بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ﴾ إلى أن المعنى: ﴿لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؟

- دلَّت بســم الله الرحمن الرحيم على أنه لا إله إلَّا الله، فهي فاتحة كل سورةٍ، ومعاني كل سـورةٍ مؤسَّسـة على معنى التوحيد، كل سـورةٍ اسـتُهلَّت ببسم الله الرحمن الرحيم، إنما هي استُهلَّت بتكرير معنى لا إله إلَّا الله.

ولما تقرأ السورة، قبل أن تنقل على الآية التي بعدها تأكَّد هل استشعر فؤادك معنى التوحيد أم لم يسـتشـعر؟ إن اسـتشـعر فاعلم أن لك من هذه الآية، التي هي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ﴾ البركة والعون!

معنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ﴾:

معناها أســتعين وأتبرَّك بذكر اســم الله الرحمن الرحيم، فالباء هنا (باء) استعانةٍ وتبرُّكٍ، فأنت لا تستعين باسـم الله، تستعين بذكر اسـم الله، وتتبرَّك بأن تستعين بعملك، تستعين بنطقك لاسـم الله؛ فهل نتوسَّل بغير أعمالنا؟ لا نتوسَّل بغير أعمالنا، إنما التوسل المشروع هو أن تتوسَّل بعملك الصالح، فهل اســـم الله من عملك؟ وبالتالي لما أقول لك: (الباء) هذه متعلقةٌ بماذا؟ تقول: متعلقةٌ بمحذوفٍ والتقدير: أبدأ عملي مســتعينًا متبرِّكًا بذكره، فهمنا معنى البسملة؟

وأنت تقرأ السورة استحضر هذا المعنى، وأنك في هذه الحالة تستعين بهذه العبادة، وهي ذكرك اسم الله، وتتبرَّك أي تطلب الزيادة والمدد، وثبات العطاء، وليس فقط ثبات العطاء، لا، يدوم ويزيد، لأن البركة معناها: ثبوت الشيء ونماؤه، ثبوت الشيء: الشيء ثابتٌ، لا يضيع منك، ما حصَّلته لا يضيع منك، ليس هذا فقط، وإنما ينمو، الله سمَّى القرآن كتابًا مباركًا: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[الأنعام:92]. فكلما نظرتَ إليه زادك!

فلما أقول لك: كيف دلَّت؟ لا بد أن أقول لك: مَنْ الذي يعلِّمك كيف دلَّت؟ هو علم البيان؛ إذًا علم البيان وظيفته الأساسية أن يعلِّمني كيف يدل الكلام على المعنى، كيف يدل هذا التركيب على هذا المعنى.

لو رجلٌ إنجليزيٌّ جاء ليترجم جملة: (محمدٌ كثير الرماد) إلى الإنجليزية، سيفهم منها أنه كريمٌ أم أنه رجلٌ قذر؟ لما يترجمها للإنجليزية سيترجمها على أنها قذارة؛ أني أصف هذا الرجل بأنه قذر، لماذا؟ لأنه لا يعرف العلاقة بين كثرة الرماد والكرم! فبالتالي لم يعرف كيف نصل من كثرة الرماد إلى أنه رجلٌ كريمٌ.

ومثلا جبان الكلب أيضًا تدل على كرم صاحبه، فجُبن كلب الرجل العربي والفلاح العربي يدل على الكرم؛ لأن أصل الكلب أنه مستوحَشٌ، فإذا صار جبانًا، فهذا دليلٌ على أنه يكثر رؤيته للغرباء، ومعناه أن الغرباء كثيرو الورود على بيت هذا الرجل، ولا يكون الغرباء كثيرو الورود على بيت هذا الرجل إلَّا إذا وجدوا عنده طلبيتهم.

هذا الرجل الإنجليزي لا يفهم هذا الكلام؛ لأن علم البيان هو الذي يدلك.

يقول امرؤ القيس:

وَتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِراشِهَا * نَؤومُ الضُّحَى لم تَنْتَطِقْ عَنْ تَفضُّلِ**

وَتُضْحِي: يعني تصحو في الضحى.

فَتِيتُ المِسْكِ: ليس المسك، فتيت المسك، وهي نائمةٌ عليه ولا يزال فتيتًا، إذًا قبل أن تنام كان ماذا؟ هي تتقلَّب، ومع ذلك رغم تقليبها في الليل على المسك ما يزال المسك فتيتًا.

نَؤومُ الضُّحَى: لأنها مريضة، لديها صداع، لأنها مُرفَّهةٌ.

نَؤومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفضُّلِ: لو ترجمته إلى لغةٍ إنجليزية، لن يفهم شيئًا، لأنه لا يعرف طرائق دلالة هذا الكلام العربي على المعاني المرادة، فلا بد أن نعرف معهود العرب في الإبانة عن معانيهم.

إخواننا الذين يدرسون في كلية الشريعة، يعرفون أننا عندنا كتاب اسمه (موافقات) للشاطبي، يقول: "**إن القرآن إنما جاء على معهود العرب في الإبانة عن معانيها، لا تستطيع أن تفهم القرآن إلَّا إذا درستَ عادات العرب، ومنهجها في الإبانة، وأخلاقها**..".

إذا فهمتَ ستفهم القرآن؛ لأنه جاء على معهود العرب في الإبانة عن معانيها، وبالتالي لا بد وأن تكون خبيرًا بتاريخ العرب أثناء الرسالة وقبل

الرسالة، فإن لم تدرس تاريخ العرب قبل الإسلام وأثناء الإسلام، فلن تفهم القرآن فهمًا صحيحًا!

هذا كله يساعدك، ولكي تكون متميزًا في علم البيان يلزم أن تقرأ تاريخ العرب، وأن تعرف أن هذه الكلمة تفيد معنى كذا، وهذه الكلمة تفيد معنى كذا، فهناك كلماتٍ عند العرب نحن من الممكن أن نفهمها على غير وجهها.

ثم يأتي -بعد ذلك- مستوى الدلالة: عرفنا الصورة، والمعنى، ثم طريق الدلالة، والآن مستوى الدلالة، ما معنى مستوى الدلالة؟

قد تدل دلالةً خفيةً، وقد تدل دلالةً واضحةً، وقد تدل دلالةً محكمةً، ودلالة محتملةً.

الأصوليون -وخاصة أصول فقه الحنفية- متميِّزون في هذه النقطة، لو تريد أن تقرأ جيدًا جدًّا في دلالة الكلام، ومستويات الدلالة، وأنواع الدلالة، وآخر هذا الكلام، اقرأ كتب الأصوليين عند الأحنفيين.

كلمة الأحناف مخالفة قياسٍ؛ لأن الأحناف هي جمع الرجل الحنيف، الذي يتعبَّد على دين إبراهيم، إنما الذي يَتْبع المذهب الحنفي اسمه الحنفية، لا تقل هذا مذهب الأحناف، قل هذا مذهب الأحنفيين، البلاغيون يقولون: هذا اسم مخالفة قياسٍ، ومخالفة القياس عيبٌ من عيوب فصاحة الكلام.

كان لي شيخٌ اسمه عبد الكريم شعبان، أول ما دخلنا كلية اللغة العربية، دخلتُ كلية اللغة العربية تظن نفسـك سـيبويه، فيقول: "**يا ولد، اسـمع النحوي إذا تكلَّم لا يُخْطِئ، وإذا سَمِع لا يُخَطِّئ**".

لما يســمع أي أحدٍ لا يخطِّئه، لماذا؟ يحمل كلامه على مذهبٍ من مذاهب العرب؛ لأنه يعرف مذاهب العرب.

وكذلك لما تكون فقيهًا، أسـتاذ فقه مقارَن، وترى واحدًا يصـلِّي، تقول له: صــلاتك صــحيحة على مذهب كذا، لكن في كل وقتٍ يقول لك: حرام، أخطأتَ، تعرف أنه ضــيِّق الأفق! الذين يحرِّمون على خلق الله كل شيءٍ هؤلاء ليسوا من الفقه في شيءٍ!

المهم عندنا أننا عرفنا: الصـورة، ثم المعنى، ثم دلالة الصـورة على المعنى، ثم مستوى دلالة الصورة على المعنى، هل هي تدل عليه دلالةً محكمةً؟

أنواع الدلالات:

- **دلالة ظاهرٍ**.
- **دلالة نصٍّ**.
- **دلالة مُفسَّرٍ**.
- **دلالة مُحْكَمٍ**.

دلالة المحكَم: يعني لا يحتمل لا تأويلٍ، ولا نسخ، ولا أي شيءٍ، دلالةٌ قطعيةٌ، يقول: قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، لا يحتمل أي شيءٍ، مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[المائدة:3]. قطعي الدلالة بالتحريم.

الدلالة المحتمِلة:

لو قال: لا تأكلوا الميتة، يقول: تحتمل أن تكون للتحريم، وتحتمل أن تكون للكراهة، لذلك صيغة افعل ولا تفعل الدلالة فيها على الحُكم الشرعي دلالةٌ محتملة.

فالأصل في الأمر أن يكون للوجوب إلَّا إذا جاءت قرينةٌ فصَرَفت، والأصل في النهي التحريم إلَّا إذا كانت قرينةٌ فصرَفت، نقول: حتى نخرج من قضية (قرينة تصْرِف) هذه تأتي في صورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾[البقرة:178]. هل هذه تحتاج قرينةً؟ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾[المائدة:3]. انتهى الكلام، فنقول هنا: الدلالة دلالةٌ محكمةٌ.

☼ سؤال: ما الفرق بين قوله: كُتب عليك كذا، وقوله: افعل كذا؟

- نقول: هذه دلالةٌ قطعيةٌ ولا تحتاج إلى سياقٍ ولا قرينة، وتلك دلالةٌ احتماليةٌ، تحتاج سياقًا وقرينة كي أفهم جيدًا.

ولذلك تتبَّعوا المواضع التي في القرآن، والتي فيها: كُتِب، فَرَض، تجد أنها في الأشياء التي لا تحتمل الحياة المخالَفة فيها، لا يعطي فرصةً لأحدٍ أن

يختلف؛ لأن الحياة تفسد علينا، لكن ما فيه سعة يأتي فيه بقوله: افعل كذا، ولا تفعل كذا.

ولذلك نأخذ من قوله تعـــــالى: ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء:36]. لا نأخذ التحريم من الصيغة -من صيغة النهي- نأخذها من مادة الكلمة، التي هي (الإشراك) الإشراك نفسه لا يجوز.

☼ **أقول: من أين أخذتَ دلالة التحريم في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا﴾[النساء:36]؟**

- لو قلتَ لي: من صـــيغة (لا تفعل)؛ أقول لك: أخطأتَ، صـــيغة: (لا تفعل) لا تدل على التحريم، وإنما الذي نُهيتَ عنه هو الذي يدل أنه لا يجوز أن يُفعل، فهناك فرقٌ بين ما تأخذه من مادة الفعل، وما تأخذه من صيغة الفعل، هذا اسمه طريق الدلالة.

☼ **مَنْ الذي يشتغل بطريق الدلالة؟**

- الذي يشتغل بطريق الدلالة هو علم البيان.

ولذلك علم البيان له علم المعاني، وعلم البيان له مكانٌ عظيمٌ في علم أصول الفقه، ثلث كتب، أي كتاب في أصول الفقه ثلثه بلاغة، حتى الذي يُدْرَس في كلية الحقوق، ستجد أن ثلث الكتاب -على الأقل- متعلِّق بعلم المعاني وعلم البيان.

فهناك علاقة وُثقى بين العِلمين، فلا تكن طالب في كلية الشريعة وأنت لا تدرس علم معانٍ، لا تدرس علم بديعٍ.

(4) **أثر الصورة في المعنى الزائد:** كيف زادت هذه الصورة المعنى؟ تقارنه بأصل المعنى، وتقارنه بالمحتمَلات الأخرى.

(5) **أثر المعنى الزائد في نفسك أنت:** لما قرأتَ الآية وتدبرتها، نسألك: قبل أن تقرأ كيف كان حالك؟ وبعد أن قرأتَ وتدبرتَ كيف أصبح حالك؟ وازن حالك ما قبل القراءة وما بعد القراءة، إن رأيتَ أنك قد تغيَّرتَ أو رغبتَ في أن تتغيَّر؛ فهذا هو أثر المعنى فيك، أما إن بقيتَ على حالك فأنت لم تتأثر بشيءٍ.

إذًا أول شيءٍ: دراسة الصورة، الشيء الثاني دراسة المعنى، الثالث: دلالة الصورة على المعنى، مستوى دلالة الصورة على المعنى، ثم أثر الصورة في المعنى، ثم أثر المعنى فيك أنت أيها القارئ.

لن تكون بلاغيًّا، ولن تكون ناظرًا في النص نظرًا بلاغيًّا إلَّا إذا استوفيتَ هذه الأركان، ولن تستطيع توفيتها إلَّا من خلال علم البلاغة.

علم البديع:

يبقى معنا العلم الأخير، وهو علم البديع، هذا العلم السكَّاكي لم يذكر في كتابه كلمة علم بديعٍ، هذه تسميةٌ طارئةٌ جاء بها ابن الناظم -بعد ذلك- في كتابه (المصباح)، ابن الناظم هو ابن صاحب الألفية، هو الذي

قال لنا أن هناك علمٌ اسمه علم البديع، ثم تبعه -بعد ذلك- الخطيب، ومَن شاكل الخطيب.

طيب، الســـكَّاكي ماذا فعل؟ بعدما انتهى من الكلام عن علم المعاني وعلم البيان، وقال: "**وهناك أساليب أخر يُستفاد منها التحسين**" فقط لا أكثر ولا أقل، تسـميها معانٍ؟ قال: لا، تسـميها بيان؟ لا، تسـميها بديع؟ لا، إذًا هي زائدة.

وصـنيع السـكَّاكي عندي أعلى من صـنيع ابن الناظم والخطيب؛ لأن أسـانيد علم البديع بعضـها يرجع إلى علم المعاني، وبعضـها يرجع إلى علم البديع؛ لأن البديع إما أن يكون بديعًا في التركيب فيرجع إلى المعاني، مثل المقابلة: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2)**﴾[الليل:1،2]. هذه مقابلة، جاءت من تركيب الكلام، من تركيب الصـورة، الحُسـن جاء من تركيب الصورة، ما دام تركيبًا إذًا أصله المعاني.

أو في التورية، فالتورية معناها أنك تدل بكلمةٍ لها وجهان، وجهٌ بعيدٌ، ووجهٌ قريبٌ، وأنت تريد البعيد، ولا تريد القريب، إذًا الحُسـن جاءك من طريق الدلالة، والدلالة علم بيانٍ.

فنستطيع أن نصـنِّف أساليب علم البديع، إما بديعٌ آتٍ من التركيب، وإما بديعٌ آتٍ من الدلالة، البلاغيون يسَّـروا علينا الأمر فقالوا: لن نصـنِّفها هكذا، سنقول: بديعٌ جاء من اللفظ، أي تحسين جاء من اللفظ، وتحسين جاء من المعنى.

التحسـين الذي جاءِ من اللفظ، والتحسـين الذي جاء من المعنى، جاء لمن؟ جاءِ التحسين للمعنى المراد، فهذه الأساليب البديعية وظيفتها أن تحسِّن المعنى في صدرك,

إذًا هي لا تحسِّــن لفظًا، هي تحسِّــن من المعاني في صــدر الســامعين، فالأســلوب لما يأتي فيه جناسٌ، لما يأتي فيه ســجعٌ، هذا يجعل النَّفْس فيه؛ لأن النَّفْس تحب الجمال! النفس الآدمية تعشـق الجمال وتكره القبح، سـواءٌ كان جمالًا حِسِّيًّا أو جمالًا معنويًّا: «**إِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**».

والعرب تقول: الجمـال الـذي يحبـه الله هو الجمـال الـذي ينجُم من الجلال، من الأشياء العظيمة.

ولذلك قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إيَّاكُم وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ**» قالوا: وما خضـراء الدِّمن يا رسـول الله؟ قال: **الْمَرْأةُ الحَسْـنَاءُ فِي المَنْبَتِ السُّوءِ**».

☼ كيف أعرف أن الجمال نَجَم عن جلالٍ؟

- إذا كان هذا الجمال الذي رأيتَ لم يَشْـغلك عن ربِّك فجلالٌ، فإن شَـغَلك عن ربِّك فليس بجمالٍ، إذا رأيتَ شـيئًا جميلًا فاسـتحضـرتَ صـانعه جل جلاله، فهذا جمالٌ نَجَم عن جلالٍ، وإن شَـغَلك بجماله عن ربك فاعلم أن هـذا ليس جمـالًا؛ إنما هو قُبحٌ؛ لأنـه قبحٌ بنتيجته، هـذه هي وظيفـة علم البديع، أن يحسِّن المعاني في صدورنا.

ولذلك جاء القرآن في التنزيل المكي مُترعًا بالمحسِّنات البديعية؛ لأنه جاء لقومٍ كانوا يعشقون الجمال اللغوي، الجمال اللساني، الجمال الأسلوبي.

أما في المدينة فقلَّما تأتي الآيات المدنية وقد اشتملت على بديع؛ لأنه جاء في بيئةٍ كان يحيط بها اليهود، وكانت الأنصار مخالطةً لليهود، فلم يكونوا على قَدْر أهل مكة في إحساسهم بالجمال.

فالقرآن راعى ظروف أهل مكة، فكان يحدثهم بما يشرح صدورهم: "**إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بَشَرٌ**" لم يصف القرآن أي شاعرٍ كما وصفه هذا الرجل رغم أنه كافر.

هذا والد سيدنا خالد بن الوليد، وهو الوليد بن المغيرة، وزوج أم سيدنا خالد، وزوجته أخت السيدة ميمونة، وزوجته أيضًا أخت امرأة سيدنا العباس، انظر ثلاث بنات، واحدة تزوجها الوليد بن المغيرة، وواحدة تزوجها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وواحدة تزوجها العباس، انظر تقسيم الله وأقداره، وكأن الله أيضًا أراد أن يطيِّب خاطر امرأة الوليد، فجاءها بخالد! الذي ليس له نظيرٌ حتى يومنا هذا! فعوضها الله في ولدها، بينما ميمونة لم يكن لها أولاد، لكي تعرف تدبير الرحمن الرحيم!

هذه هي العلوم الثلاثة التي أحببتُ أن ننتفع بها، وفي المحاضرة القادمة سنبدأ نتكلَّم عن فصاحة الكلام، ويُستحسن أن تقرأ هذا الدرس، الفصاحة والبلاغة، وغير الفصاحة، وغير البلاغة.

الكلام الذي ستقرأه في (علوم البلاغة) للمراغي و(المنهاج الواضح) لحامد عوني، هو يتكلَّم عن نوعٍ معينٍ من الفصاحة، اسمه الفصاحة الذاتية، يطلب في الكلمة أو الكلام أن يكون الكلام فصيحًا في ذاته، لكن نحن نقول له: هناك شيءٌ آخر اسمه الفصاحة السياقية.

يعني الشيء نفسه يكون فيه عيبٌ لكنه في سياقه ليس عيبًا، فأنا لو أخذت الآية: ﴿**تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى**﴾[النجم:22]. وأخرجتها من الآية، وطبَّقتُ عليها معايير الفصاحة سأجدها كلمةً غير فصيحةٍ، وكلمة: ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا**﴾[هود:28]. صعبة جدًّا، فيها صعوبةٌ، لو أخذتها خارج سياقها سأجد أنها كلمةٌ غير فصيحةٍ، لكن لو وضعتها في سياقها لا يمكن أن يكون غيرها مكانها! ما الذي جعلها فصيحةً وبليغةً؟ السياق.

يقول البلاغيون: نحن نريد أن تكون الكلمة في ذاتها فصيحةً، وفي سياقها فصيحة، يطلب المستوى الأعلى، يقول: إذا لم يتحقَّق فَعَلَى الأقل يكون فصاحةً سياقيةً، فصيحةٌ سياقيًّا.

أضرب لك مثالًا للكلمات الصعبة في قول امرئ القيس عندما قال:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى العُلَا

هل امرؤ القيس لا يشعر بصعوبة الكلمات؟ نعم يشعر بصعوبتها، لكن يقول: لا يمكن أن تكون كلمة تعطي صورة شعر هذه المرأة إلَّا هذه الكلمة! فهو يحس جيدًا جدًّا بالصفة الصوتية للشين والزاي والتاء والسين،

كل هذه الأصوات هي التي ترسم لي صورة هذه المرأة، وأنا أريد أن أريك صورة انتشارها؛ لأن هذا آية كمال أنوثتها، أي أن هذه امرأةٌ كاملة الأنوثة.

☼ لماذا تكلِّمني عن كمال أنوثتها؟ لماذا العربي دائمًا يصف المرأة بكمال أنوثتها؟

– فالشباب الذي لم يفهم جيدًا، يقول: هو يكلِّمني عن عينيها، وعلى كذا، نقول له: هو لا يتكلَّم ليستثير حيوانيتك، هو يقول: هذه الفتاة كاملة النضج، فإذا حَمَلَت فلن تأتي إلَّا بفارسٍ؛ لأنها عفيةٌ، إذًا الوليد القادم هذا سيكون فارسًا، فلا تنتقِ إلَّا امرأةً بهذه المواصفات الجمالية الجلالية.

فامرؤ القيس ليس كما يصورون لكم أنه رجلٌ عربيدٌ، هو ليس عربيدًا، وأمه فاطمة بنت ربيعة التغلبي، مهم جدًّا أن تفهم هذا، اقرأ حياة فاطمة أم امرئ القيس، أخت الْمُهَلْهِل بن ربيعة، واقرأ مَنْ الْمُهَلْهِل هذا، لكي تعرف مَنْ هي فاطمة؟ فاطمة لا يمكن أن تأتي بولدٍ داعرٍ! فكل ما يُقال تقريبًا عن امرئ القيس كذبٌ!

هذا رجلٌ عربيٌّ قُحٌّ أصيلٌ، فإذا تكلَّم عن فاطمة، ووصفها الوصف الذي تقرأه في المعلَّقة إياك أن تقرأها قراءةً حِسِّيةً، اقرأ ما وراء ذلك.

وللعقاد نقدٌ عالٍ جدًّا في كتابه (اللغة الشاعرة)، ينقد حياة امرئ القيس نقدًا طِبِّيًّا؛ لأنه متهمٌ أنه كان كريه رائحة العرق، فيتكلَّم العقاد لماذا كان كريه الرائحة، طبعًا كلامٌ عالٍ جدًّا، ومن هنا تعرف ما معنى العقاد؟!

ســبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشــهد ألَّا إله إلَّا أنت، أســتغفرك وأتوب إليك، والحمد لله رب العالمين.

****